كلمة العدد

تربية الضمير

بقلم
د. محمود جمال أبو العزايم
رئيس التحرير

في إحدى المقابلات التليفزيونية مع إحدى القنوات الفضائية سألنى المذيع عما يجرى فى البلد من أحداث وإهمال واستشراء الفساد وانتشاره فى المحليات وانتشار الرشوة والمحسوبية. وهل كل ذلك بسبب انعدام الضمير.. ولماذا يموت الضمير حين يرتكب البعض جرائم القتل والتعذيب والتزوير، أو الرشوة والسطو على ممتلكات الآخرين، لماذا يحاسبك ضميرك على كلمة واحدة تفوهت بها فى لحظة غضب مثلا ولماذا يسكت ضمير البعض مرتاحا حين ترتكب أبشع صنوف التزوير وسلب الكرامات وتشويه السمعة، وسرقة الأوطان؟ لماذا يكون ضميرك واعيا متربصا، يلهبك بسياطه المؤلمة. وأنت لم تقترف إثما أو تجنى ذنبا؟ ولماذا يسكت الضمير وقد يتلاشى أو يزول حين ترتكب الجرائم بحق البشرية جميعا. وحين تباد شعوب بأكملها كما يحدث فى فلسطين والعراق؟.. فماذا يعنى الضمير؟ وهل هو دليل قوة أم ضعف، ولماذا يكون عند بعضنا لا يرحم ولا يقبل عذرا لأقل هفوة وإن كانت كلمة غير مقصودة، لكنه ينام قرير العين مطمئنا حين تراق الدماء الزكية، وتسرق الممتلكات، وتسلب الحقوق؟ هل الضمير موجود فعلا أم أنه من اختراعنا نحن.. إذن كيف يمكن أن نحدد بكلمات بسيطة، معنى الضمير؟

وكانت الإجابة أن الضمير هو تلك القوة الروحية التى تحكم مواقف الإنسان وتفكيره، فتجعله يميز الخطأ من الصواب، وهو منحة الله عز وجل للإنسان يدله من خلاله على ما فيه خيره وصلاحه ومرضاة الله عز وجل، وهذا ما يكسب الضمير صفة العمومية التى هى أحد أهم صفاته، فلا يمكن لحكم الضمير أن يتغير من شخص لآخر مع أخذ الظروف بعين الاعتبار، هذا وإن كلمة الضمير شائعة وكثيرة الاستعمال، إلا أن معناها الحقيقى وأهميته فى الدين وكيف يكون السلوك الشخصى لأصحاب الضمائر، وبماذا يتميزون عن غيرهم بشكل عام كلها حقائق غير معروفة فمعنى الضمير محدود بما تعارف عليه المجتمع.

إن الضمير الذى يتحدث عنه الفلاسفة والعلماء يرتبط بمجال الحياة اليومية، ويستمد قوته من تواجد مجتمع متماسك بالفضيلة، فإذا ذكرنا مثلا أن رجلاً قام بمسؤولياته الإدارية دون نقص أو تلاعب فسنقول مباشرة إنه يمتلك ضميرا تواقا إلى الخير يقظا متميزا بنزاهته، وإذا رأينا شخصا يؤنب آخر على قيامه بسلوك مخل، فسنقول حتما بأنه يتملك ضميرا حيا، وهنا يمكن أن نغير عبارة «يمتلك ضميرا» إلى أخرى تجمع أمر الدنيا والآخرة، يمتلك قلبا خاشعا يخاف الله قال تعالى «وترجون من الله ما لا يرجون» فالضمير الذى يدافع عن حقوق الإنسان بشكلها الغربى يصبح مرتبطا بالأهواء لأنه أفقد ضميره تلك الصلة الربانية التى تعطى لعمله معنى جميلا فهو يدافع طلبا لوجه الله ورغبة فى القرب منه، فهذا هو الضمير الحى الذى يجمع فى نفس الوقت بين العمل اليومى فى الدنيا موصولا برغبة أكيدة فى الآخرة.

لقد كثر استعمال كلمة الضمير أخيرا، وشاعت أكثر ما شاعت فى الأوساط الغربية، كمظهر من مظاهر الروح العامة للنهضة الأوربية التى اتجهت بفكرها وسلوكها بعيدا عن الدين حيث جعلوا الاحساس الداخلى بديلا عنه، فهو يتولى التمييز بين الخير والشر ويدعو إلى الأول وينهى عن الثانى وشاع استعمال هذا اللفظ أيضا فى الشرق تقليدا للغرب.

وهو وإن لم يرد كثيرا فى الاستعمال القديم بهذا المعنى فقد تحدث علماء الأخلاق كالغزالى عن مهمته بعنوان آخر، ففى إحياء علوم الدين عند شرح الغزالى عجائب القلب قال: إنها نفس الإنسان التى توصف بالمطمئنة إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات» والتى توصف باللوامة إذا لم يتم سكونها واعترضت على النفس الشهوانية، كما توصف بالأمارة بالسوء إن تركت الاعتراض وأطاعت الشهوات، كما تحدث عنها فى كتاب المراقبة والمحاسبة ضمن كتاب الإحياء» وعبر عنها مرة بالنور الإلهى وأخرى بالمعرفة والهادية للمرء فى أعماله.

إن هناك حديثا يدل على وجود هذه القوة الباطنة وهو حديث وابصة بن معبد الذى سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن البر والإثم فقال له: «يا وابصة، استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب» والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن افتاك الناس وأفتوك» رواه أحمد. وروى مسلم قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

والغزالى يرى أن نشاط الضمير يظهر فى ثلاثة مواطن ، الأول قبل الشروع فى العمل، بالنظر إلى الباعث عليه فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره انكف عنه، والثانى عند الشروع فى العمل، بقضاء حق الله فيه، وانجازه على أكمل ما يمكن، والثالث بعد العمل، وذلك بمحاسبة النفس على ما وقع منها».

وحيث إن الضمير قوة فطرية فللتربية دخل كبير فى نموها وكمالها، وأعظم ما يربيها هو الدين، قال تعالى: «ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها» «سورة الشمس ٧ـ١٠»

فالتعبير بالتسوية وإلهام الفجور والتقوى إشارة إلى عمل الله فيها، والتعبير بالتزكية والتدسية إشارة إلى عمل الإنسان.

إن التربية البشرية البعيدة عن هدى الدين لا تضمن للضمير استقامته فى أداء مهمته فالبشر يخطئون ويصيبون، ففى القديم رضى قوم لوط عن فعلتهم، وفى الحديث رأت بعض الحكومات عدم اعتبار هذه الرذيلة شذوذا، وأجمعت الأديان على بشاعة الظلم والقتل والاغتيال، فبررته الصهيونية والاستعمار.

أما التربية الدينية فتقوم على مراقبة الله قبل العمل وفى أثنائه وبعده، وأثرها هو تقوى الله وبتقوى الله تكون السعادة الشاملة فى الدنيا والآخرة مع مراعاة أن التربية على هدى الدين لا تضمن العصمة من الخطأ ولكن ترشد المخطىء إلى التوبة والرجوع إلى الاستقامة.

إن العقل والقلب والضمير هى عناصر لتوجيه السلوك فتعمل متعاونة فى نفس المؤمن، وكلها يكون موقعها المخ الإنسانى الذى يوجد به مراكز المراقبة والمحاسبة، «الضمير» وكلما ازداد حجم قشرة المخ فى الإنسان ـ التى يوجد بها مراكز التحكم فى السلوك والوجدان والفكر ـ استطاع الإنسان التحكم فى تصرفاته وغرائزه وكلما قل حجم قشرة المخ ضعفت قدرة الإنسان على السيطرة على ضبط سلوكه.

إن الضمير أمر فطرى فى الإنسان قال تعالى «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» وقال تعالى «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون».

والضمير يحتاج إلى ضبط وتوجيه، والإنسان محتاج لأن يتفاعل مع ضميره ليجعله حيا، إن خير ما يراه الضمير هو الاعتدال فى كل شىء والتوسط فى الأمور، ولا يتأتى ذلك إلا بالضبط المنتظم المتواصل وهذه هى صورة الجهاد التى قيل إن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، وإن الجهاد المستمر هو الالتزام بالحق والالتزام بالشرع ومراقبة الله فى السر والعلانية قال تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا».